

اسم المادة : تاريخ المغرب الوسيط .

اسم المحاضرة: دولة بني مدرار (١٤٠ - ٢٩٦ هـ) + الدولة الرستمية (١٤٤ - ٢٩٦ هـ)

تذكر بعض المصادر التاريخية الى ان زعيم قبيلة مكناسة البربرية المغربية الذي اعتنق مذهب الصفرية هو المؤسس الاول لدولة بني مدرار هو ابي القاسم سمكوبن واسول من خلال دوره في نشر المذهب الصفري بين افراد قبيلته مكناسة وتحديدا من خلال التقائه بعكرمة أبي عبد الله البربري الذي كان من أبرز الدعاة الذين عملوا على نشر آراء الخوارج الصفرية في بلاد المغرب ونظراً للترابط الوثيق بين قيام الدولة الصفرية وتأسيس حاضرتها مدينة سجلماسة / وقد افاد ابو القاسم في قيام بعض الدولة المستقلة في بلاد المغرب بعيداً عن سلطة الدولة الأموية في دمشق ومن بعدها العباسية في بغداد كدولة الزعيم الصفري أبي قررة في مدينة تلمسان حفزته على القيام بعمل مماثل عن طريق الإقدام على إقامة حكم مستقل للخوارج .

حاضرة وعاصمة دولة بني مدرار مدينة سجلماسة

وهي مدينة تقع في الجنوب الشرقي لمنطقة المغرب الأقصى في منقطع جبل درن وسط رمال لا يعرف في جنوبها ولا غربها عمران لوقوعها على الطرف الشمالي للصحراء الأفريقية الفاصلة بين المغرب الأقصى شمالاً وبلاد السودان جنوباً لذا كانت بموقعها هذا من أقرب المدن المغربية إلى مدينة غانة السودانية فإن موقع مدينة سجلماسة هذا يعكس لنا بأنها مدينة صحراوية وهذا ما ذكره ابن حوقل في كتابه صورة الأرض على سبيل المثال لا الحصر ، وذلك لقرنها من الصحراء وبعدها عن البحر وقلّة أمطارها لوقوعها في منطقة ظل المطر ، وان سجلماسة تقع في أعالي وادي زير على أطراف الصحراء في المغرب الأقصى حسب ما اورده عدد من المؤرخين منهم الاصلطخري في كتابة المسالك و الممالك وبذلك تكون سجلماسة على درجة كبيرة من الأهمية في الميدان التجاري لأنها كانت محطة لا بد من المرور بها للتجار القادمون من غرب افريقيا وبالعكس وقد انطلقت هذه الدولة لتصبح من الدول الغنية في المغرب فقد ازدهرت زراعتها لتوفر الأرض الخصبة لقد أسس داخل مدينة سجلماسة حصناً أطلقوا عليه اسم العسكر . كما أسسوا المسجد الجامع ودار الإمارة ثم بنى الناس دورهم حول الحصن فاتسع العمران أما أسوارها فقد بنيت عام ٢٠٥ هـ وله اثنا عشر باباً وقد أصبحت سجلماسة بعد اكتمال بنائها ملجأ لمجموع الصفرية ولجميع الهاربين إليها اما بسبب الاضطهاد السياسي او لغرض التجارة / لقد ازدهرت مدينة سجلماسة في عصر دولة بني مدرار في مختلف نواحي الحياة فمن الناحية السياسية بسطت سجلماسة نفوذها على عدة مناطق من بينها درعة وأغمات وفاس قبل أن تصبح إقليمياً متميزاً تابعاً لإمبراطوريات وممالك المغرب الكبير المتلاحقة وفي الناحية لاقتصادي فقد انتعشت الفلاحة بفضل نظام متطور للري وتطورت الصناعات بشكل ملحوظ ومن أهمها صناعة الفخار وازدهرت التجارة والتبادلات والقوافل التجارية ومن أهمها تجارة الذهب من الناحية الاقتصادية ظلت سجلماسة تستقطب السكان الحضريين ليتحولوا بشكل تدريجي إلى سكان مدنيين دون التخلي عن الزراعة ولكن بإضافة العديد من الحرف والصناعات إلى حياة السكان وبالتالي فان سجلماسة كانت تحتوي على خليط عرقي متنوع .

نهاية الدولة المدرارية على يد الفاطميين عام ٢٩٦ هـ

تولى من بعد سمكو المدراري ابنه اليأس الملقب بالوزير الحكم عام ١٦٨ هـ والذي دام حكمه ست سنوات وبعضة أشهر وقد عمل على القضاء على بعض التمردات حتى ثار عليه جماعته وأتباعه وأقصوه عن الحكم وأقاموا بدلاً عنه أخاه اليسع والذي تذكره المصادر التاريخية ابن الأبار في كتابه الحلة السيرة بأنه المؤسس الحقيقي للدولة المدرارية لما قام به من جهود من أجل تثبيت كيان دولته وعمل على توطيد الأمن والاستقرار وقد تولى من بعده اليسع ابنه مدرار والذي لقب بالمنتصر وقد عمل على حفظ الكيان السياسي للدولة المدرارية وجاء من بعده محمد بن الميمون وشهد عصره تفاقم الخطر الفاطمي على بني مدرار والذي بدأ يهددها بالقضاء عليها ولكن في عهد عمه اليسع بن مدرار حال دون قيام الفاطميين بتحقيق أهدافهم حيث استطاع اليسع بن مدرار القبض على عبيد الله المهدي منظم الدعوة الفاطمية وقائدها وارسله مع ابنه القاسم الى مدينة سجلماسة وادعهم السجن الى ان زحف ابو عبد الله قائد الجيوش الفاطمية نحو سجلماسة وحررها من سجنهما وأسقط الدولة المدرارية عام ٢٩٦ هـ .

الدولة الرستمية (١٤٤ - ٢٩٦ هـ)

يعد عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى مؤسس الدولة الرستمية ولد في العراق في العقد الأول من القرن الثاني الهجري وقد اختلف المؤرخون على نسبة لكن على أكبر تقدير ويرجع في نسبه إلى الأكاسرة ملوك الفرس فهم أجداده إلا أن بعض المؤرخين يعيدون نسبه

إلى اللذازقة ملوك الأندلس قبل الإسلام والمهم في هذا أنه سليل بيت الملوك قبل الإسلام سواء كانوا من الفرس أم غيرهم سافر أبوه به وأمّه من العراق إلى الحجاز لأداء فريضة الحج إلا أن الأب وافاه أجله وترك يتيماً وأرملة فتزوجت أمه بحاج من أهل بلاد المغرب فأخذها وابنها عبد الرحمن إلى القيروان نشأ عبد الرحمن في القيروان وصادف هناك نشر الدعوة الإباضية في تلك الربوع فتعلق بها ونصحها أحد الدعاة بالسفر إلى المشرق لتلقي المزيد من العلم على يد الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة إمام الإباضية في ذلك الوقت توجه إلى البصرة وظل مع الإمام أبي عبيدة لمدة خمس سنوات يدرس في سرداب أبي عبيدة الذي أعده أبو عبيدة تحت الأرض خوفاً من عيون الأمويين ، عاد عبد الرحمن مع أصحابه حملة العلم إلى بلاد المغرب وكان من ضمنهم أول إمام للإباضية بويغ في المغرب وهو الإمام أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليميني ، بعد أن وصل حملة العلم إلى بلاد المغرب هينوا الأجواء لإقامة دولتهم فلما سنحت لهم الفرصة في عام ١٤٠هـ بايعوا أبا الخطاب المعافري بالإمامة بأمر من شيخهم أبي عبيدة بعد أربع سنوات من قيام دولة أبي الخطاب في بلاد المغرب وجه أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي جيشاً بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي فاستطاع هذا الأخير القضاء على دولة الإمام أبي الخطاب في معركة عنيفة عام ١٤٤هـ أستشهد فيها الإمام أبو الخطاب حاول عبد الرحمن نجدة الإمام أبي الخطاب لكنه لم يتمكن من ذلك فاضطر للفرار من ملاحقة ابن الأشعث له فتوجه إلى بلاد المغرب الأوسط حتى وصل إلى جبل يدعى " سوفجج " فتحصن به حتى أيس منه ابن الأشعث ، لما أحس عبد الرحمن من نفسه القوة والقدرة على بناء دولته الجديدة خاصة بعد أن التف عليه الكثير من أنصاره من قبائل البربر ومن أهل العلم والصلاح ممن يثق بهم اتجه إلى مكان تكثر في الأشجار والأحراش والسباع يسمى " تهرت " فشرع في بناء دولته الإسلامية الجديدة هناك ما بين عام ١٥٥هـ - ١٦٠هـ ، والتي عرفت باسم " الدولة الرستمية " نسبة إلى والد عبد الرحمن كما جرت العادة في تسمية الدول الإسلامية في العصور الوسطى بأسماء آباء المؤسسين .

وفاة عبد الرحمن ومبايعة ابنه عبد الوهاب

يبدو أن عبد الرحمن بن رستم في أواخر أيامه قد أصيب بمرض أحس منه بدنوا أجله فاقتدى بالخليفة عمر بن الخطاب فجعل الإمامة شورى بين سبعة من رجال الدولة الرستمية ممن توسم فيهم الصلاح والعلم والتقوى والورع كما ذكرت المصادر التاريخية وهؤلاء السبعة هم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، ومسعود الأندلسي ، وأبو قدامة يزيد بن فنديس اليعربي وعمران بن مروان الأندلسي ، وأبو الموفق سعدوس بن عطية ، وشكر بن صالح الكتامي ، ومصعب بن سد مان وأوصى عبد الرحمن بن رستم هؤلاء السبعة بالاجتماع والتشاور فيما بينهم لاختيار إمام من بينهم ثم توفي عبد الرحمن بن رستم عام ١٧١هـ وبويع ابنه عبد الوهاب في نفس العام .

نهاية الدولة الرستمية على يد الفاطميين

وجه الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي قادته لاحتلال مدينة تاهرت بعد أن أعلن أحرأئمة الدولة الرستمية الإمام يقظان بن أبي يقظان عام ٢٩٤هـ العصيان على الخلافة الفاطمية وقطع الخطبة لهم حيث خرج جيش الفاطميين عام ٢٩٦هـ من مدينة رقادة وكانت على بعد أربعة أيام من مدينة القيروان متجهاً إلى تاهرت فلما وصلها أحس اليقظان بن اليقظان بعجزه عن مواجهة الفاطميين وأدرك قرب نهايته فطلب الأمان من قائد الجيش الفاطمي على أن يسلم الإمام يقظان المدينة له فوافق على ذلك ودخل تاهرت ولكنه قتل يقظان ومن ظفر به من بني رستم وأرسل رؤوسهم إلى مدينة رقادة فطوف بها في القيروان ولم يكتف بكل ذلك بل استباح أموال جميع الرستميين وقضى بذلك على الدولة الرستمية ولذا كثير من سكانها بالفرار إلى الصحراء وبذلك انتهت الدولة الرستمية على يد الفاطميين عام ٢٩٦هـ لقد كان اهتمام الرستميون بالجانب الاقتصادي والعلمي واضح في بلاد المغرب .

المصدر: الفتح العربي للمغرب والحضارة المغربية ، طرابلس ، ٢٠١٢ .